النيل مجاشي

"التحيات لك أيها الرب العظيم، رب "الماعتي" العدالة المطلقة.. جئتك سيدي وأضحيت قريباً منك حتى انظر محاسنك.. أنا أعرفك وأعرف الآلهة الاثنين وأربعين إلهًا الذين معك في قاعة "الماعتي".. جئتك كي أري جمالك، ويداي متضرعتان تحملان "الماعت".. يا من عيناه "ماعتي"، "والماعتي" هو اسمه"

داخل قاعة العدالة المطلقة "ماعتي" مثُلت روح "مين- لي"، إنه يوم الحساب، مات ذلك الرجل تاركاً زوجته وأبناءه، واليوم هو في حضرة الآلهة لتبرئة نفسه من كل فعل مشين، يقف بين يدي إله البعث والحساب أوزيريس الجالس علي عرشه، ومن خلفه جلستا زوجته إيزيس والأخت نفتيس تحميانه... أسفل قدميه يجلس "عممعموت" أكل قلوب العاصين والجبارين ينتظر الإشارة.

لم يبدوا علي الإله "أوزيريس" إنه يسمع ابتهالات تلك الروح، فساعة الحساب لم تبدأ بعد، فجثا "مين- لي" علي ركبتيه عاقداً كفتيه أمام وجهه المضطرب، وبعيون ملؤها الأمل، وبقلب ظن إنه توقف عن الخفقان يوم أن مات، وبأطراف مرتعشة، وبأوصال مرتجفة، التفت "مين- لي" إلي الإله "أنوبيس"، فبين يديه قلبه

مازال يقطر دماً، يتجه إلي ميزان العدالة المُطلقة، نظرة قصيرة من "أنوبيس" أتبعها بإشارة من يديه إلي الإله "تحوت" جعلته يضع ريشة "ماعت" علي إحدي كفتي الميزان، وعلي الكفة الأخرى وضع قلبه، فخط "تحوت" بريشته علي بردية الحساب أعمال "مين- لي".

لم يري "مين- لي" ما كتبة الإله "تحوت"، ولكنه أدرك أن ما كتبه ليس في صالح أعماله، كان مشهد الميزان ينبئ عن ذلك، انخفضت كفة قلبه لتُصبح أثقل من ريشة ماعت بكثير، ما يعني أنه عاش حياته في الدنيا جباراً عصياً كاذباً يفعل المنكرات، جحظت عينا "مين- لي" رُعباً، تعالت دقات قلبه تصنع ضجيجاً داخل أعماقه، كاد يسقط مُغشياً عليه، التفت إلي "عممموت" الذي تأهب صارخاً وقد أدرك إنه علي وشك التهام مُذنب أثيم، وتكون تلك هي نهايته إلي أبد الآبدين.

التفت "مين- لي" إلي "أوزيريس" متضرعاً يرجو المغفرة، علي وجنتيه سالت الدماء أنهاراً، تساقط جلد جسده خجلاً، وبصوت لاهث، لاهف، قال، "لم أكن عصياً جباراً.. فأنا طاهر أمين.. وطهارتي مثل طهارة طائر البينو.. في إهناسيا ذلك العظيم.. أنا أنف سيد التنفس العظيم الذي يحفظ حياة البشر.. لم أظلم إنساناً.. لم أُسيء استخدام حيوان.. لم أرتكب حماقة في مكان

الحق.. لم أسع لمعرفة ما ينبغي كتمانه.. لم أنظر لعورة.. لم أزني.. لم أعذب أحد.. لم آتي باسمي قبل اسم الإله.. لم أغضب الرب.. لم أبدد ميراث اليتيم.. لم أترك جائعا.. لم أتسبب في دموع.. لم أقتل.. لم أفعل شيئاً مما نهاه الرب".

"قُل لي ماذا فعلت بأمر النهر".. لم يتحدث "أوزيريس"، ولكنه سمع سؤاله، فأشار بكلتا يديه قائلاً بصوت هامس: "أنا يا سيدي لم ألوث ماء النهر.. لم أمنع ماء الفيضان في موسمه.. لم أبني سداً للمياه الجارية.. لم....."، صوت هادر انطلق داخل أعماقه جعله يصمت، صرخات الكائن "عمعموت" وضربات حافري قدميه الأماميتين، ومشهد الزبد يخرج من بين فكية الشبيه بفكي تمساح نيلي ضخم، جعله يتوقف عن الهمس، كل خليه من خلايا جسده توقفت عن الحياة، إشارة من يد "أوزيريس" إلي السماء جعلته يرفع رأسه، ليري بعينيه ما لم يكن في حُسبانه.

وكأن السماء انشقت لتُكشف عن شاشة هولوجرامية ثلاثية الأبعاد، وما أن رأي "مين- لي" ما تعرضه حتي جحظت عيناه رعباً، فأمام عينيه دليل أعماله، دليل كذبة علي "أوزيريس"، رأي كيف أنه كان يلوث النيل، كيف إنه كان يُلقي بفضلاته في مياهه المُقدسة، كيف إنه لم يهتم بنظافته، كيف أنه كان يحرم جاره منه حتي يروي أرضه أولاً، لم يكن "مين- لي" أميناً علي النيل،

وكان يدرك ذلك، أخفض رأسه إلي "أوزيريس" لم يُخرج صوتاً، فقد سكت اللسان، فألقي "أنوبيس" بقلبه إلي "عمعموت"، فأشار أوزيريس إليه أمراً بالتهامه، فانقض يلتهم قلب "مين- لي" وروحه الصارخة، ليقتص "ماعتي" من روح أهانت النهر العظيم "أتور- عا"، ولم تصن رب المياه الأبدية "نون".

●●●

نهار خارجي- (ساحة منزل مُطل علي النيل ١٥ توت ٢١٨٠ ق.م).. "ما بال "حابي" هذا العام، هل أغضبناه إلي هذا الحد، هل يُعاقبنا رب الأرباب فأمر "نون" بمنعه عنا، لقد اشتاق "أتور- عا" إلية".. وقف "سني - كا- لى" أمام ساحة منزله المُطل علي النيل بين زوجته "رودوبيس"، وبناته الثلاثة، "ألارا" و"أسماغا" و"كاربيتا"، يشكو ما أصاب النيل من جفاف، كان منذ عامين أشهر تجار "تي من هور" وأغناها، واليوم أضحت تجارته مُهددة بعدما حُرمت أراضية مياه النيل.

دنت "رودوبيس" من "سني - كا- لى" مواسية، هون عليك زوجي وأب بناتي، فرب المياه الأبدية لن يهون عليه عطش النهر العظيم، سيأتي "حابي" حاملاً السعادة إلينا، وستعود "تي من هور" درة الإله "حور" إله الشمس المُشرقة، فأطرق "سني- كا- لي" رأسه خجلاً، كان يدرك أن روح النيل "حابي" لن يتأخر عن أرضه

الطيبة، اقترب من شط "أتور- عا" الذي جفت مياهه، جثا علي ركبتيه رافعاً يديه إلي السماء مناجياً، "حعبى، أبو الآلهة... الذي يغذي ويطعم ويجلب المئونة لمصر كلها، الذي يهب كل فرد الحياة في اسم قرينه "الكا"، ويأتي الخير في طريقه والغذاء عن بنانه ويجلب مجيئه البهجة لكل إنسان.. إنك فريد، أنت الذي خلقت نفسك من نفسك، دون أن يعرف أي فرد جوهرك".

أسرعت "ألا- را" و"أسما- غا"، خلف أبيهم يحملن سلال الحلوى والفاكهة، كن يرددن خلف "سني - كا- لى" ترنيمة النهر العظيم، وبين الفينة والأخرى يقذفن النيل بالكعك والفاكهة والتمائم لتثيره، أملين أن يقبل حابي هديتهن، فتزيد قوه الفيضان ويفيض أمواج عاتية معطيا الحياة لأرض "تي من هور"، ومن داخل المنزل خرج الخدم والوصيفات ليشاركوا سيدهم ترانيم النيل، رفعوا أيديهم إلي السماء مرددين، "يا معبود الجميع حين يتسرب إليهم الضعف.. أنت الذي خلقت في السماء نيلا لكي ينزل عليهم ولهم".

"ما يجب أن نتركك هكذا.. علينا أن نذهب إليك".. انتبه "سني- كا- لى" إلي أن ابنته "كار- بي- تا" لا تشاركهم ترنيمة النيل، كعادتها وقفت بعيداً تتطلع إلي الجنوب تخُاطبه، وفي أحيان كثيرة تُهدده، ظن كثيراً أن جفاف النهر العظيم أصاب عقلها اضطرابا، أو أن لعنة رب المياه الأزلية "نون" حلت بها، اقترب منها

واضعا يديه علي كتفيهاً مُهدئاً، "ابنتي الصغيرة.. سيفيض قريباً.. سيأتينا حابي بالسعادة.. لن يبخل علينا "نون" بفيضه"، فأشارت "كار- بي- تا" إلي منبع "أتور- عا" قائلة: "علينا أن نضمن ذلك يا أبي.. علينا أن نضمن ذلك".

"ما هذا الذي تقوله "كار- بي- تا".. ما الذي تقصده بضمان فيضان "حابي".. وكيف يمكن أن نفرض علي "نون" أن يلقي بفيضانه علي النهر العظيم".. كان "سني- كا- لى" يدرك أن ابنته رغم إنها أصغر بناته، إلا أنها اكتسبت من اسمها معناه، الحكمة، لا تنطق إلا ما يتحقق علي أرض الواقع، كثيراً ما استعان بها في إدارة شئون رعيته، ما يعني أن ما تقوله يمكن أن يكون حلاً لمأساة "تي من هور" وسائر أرض الفراعين العظام، تنهيدة عميقة أخرجت "سني- كا- لى" من شروده، نظر إلي أبنته التي اقتربت برأسها من أذنه قائلة بصوت هامس وهي تشير إلي الجنوب: "يجب أن نكون هناك يا أبي.. لا يجب أن نترك "نون" بمفرده.

●●●

ليل خارجي- (قرية هامسين الإريترية ٨ ديسمبر ١٨٧٥)..

"يزيد.. انهض يا بني.. المعركة لم تنتهي بعد.. جنودك يحتاجون إليك.. لا تتركهم في المعركة بمفردهم.. اذهب إليهم.. من أجل النهر العظيم".. داخل كوخ صغير علي أطراف قرية "هامسين"

استلقي يزيد علي صندوق بدائي من الخشب فاقد الوعي، يُحيط صدره بقطعة كبيرة من القماش الملطخ بالدماء، يسيل العرق بغزارة علي جبينه ووجنتيه، إلي جواره فتاه سمراء صغيرة انهمكت في تضميد جراحه، لم تبالي بما يقول، فقط يكفيها إنها علمت أسمه، "يزيد".

لم يكن يزيد مُغشياً عليه كما اعتقدت فاطمة، تلك الفتاة التي تضمد جراحه، إبنه حطاب القرية الذي وجده مُصاباً علي مقربة أميال من قرية "مصوع"، كان يشعر بكل شيء حوله، أدرك منذ الوهلة الأولي إنه نجا من وطيس معركة حامية، دارت منذ أيام قليلة بين الجنود المصريين والأحباش أسفل جبل "آدي هوالا" بالقرب من قرية عدوة، تذكر "يزيد" كيف حاصره الجنود السود في الظلام داخل ذلك الوادي السحيق، كيف أعملوا السيف في رقاب العزل من السلاح، كيف أنقذه سقوطه في كهف سحيق عقب إصابته في صدره، كيف عاني كثيراً ليخرج من الجانب الأخر لساحة المعركة، وقبل أن يسقط مُغشي عليه تذكر ذلك الحطاب الذي عثر عليه وراح يُسعفه.

"أنا يزيد الفولي.. ابن إبراهيم الفولي.. حفيد "سني- كا- لى" شيخ تجار "تي من هور".. أتيت إلي هنا لأقاتل علي حافة العالم.. اجتزت صحاري وجبال وغابات لأكون بجوار رب المياه

الأبدية "نون".. جئت من أجل النهر العظيم "أتور- عا".. لأهب له حابي كل عام.. حتي لا يظمأ إنسان أو حيوان أو طير يسير علي أرض مصر.. أنا يزيد".. راح يزيد يردد تلك الرسالة التي رددها جده منذ آلاف السنين، ظن كثيرا أن قتاله شيئاً مقدساً من أجل النيل، ولكنه ظن من البعض الأثيم.

ذات يوم، في إحدي قري "تي من هور"، كان يزيد يحرث الأرض مع والده، اقتحم عمله شيخ الخفر "عبد البر"، مُعلناً أمر الخديوي إسماعيل إنفاذ حملة لمنابع النيل، فرح كثيراً يزيد، أراد أن يكون أول جنود الحملة الراحلين، لم يكن يدرك عواقب تلك الرحلة، لكنه كان يدرك أن تأمين مجيء "حابي" لملئ النهر العظيم مهمة مقدسة، يجب أن يشارك بها، تلك رسالة جده العظيم، ووصية جدته "كار- بي- تا".. "يجب أن نكون هناك يا أبي.. لا يجب أن نترك "نون" بمفرده".

●●●

نهار خارجي (حقل زراعي دمنهور ٢٠ أغسطس ٢٠٣٠)..
يوم من أيام الصيف الحار، الشمس كعادتها في شهر "مسري" في كبد السماء، تلقي بأشعتها الحارقة علي تلك القرية، فبقي سكانها في بيوتهم تاركين الحقول بلا فؤوس، حتي الأطفال ما عادوا يلعبون في الأزقة أو بين البيوت، في تلك اللحظة، جلس

"عـواد" علـي رأس حقلـه أسـفل شـجرة التـوت، يلتمـس مـن فروعهـا الجافـة بعـض مـن ظـل، بـين الفينـة والأخـرى يلقـي نظـرة علـي أرضـه التـي تشـققت تربتهـا، وجـف مـا بهـا مـن زرع، فهـذا العـام لـم يـأت "حابـي" بالسـعادة، وجـف النهـر العظيـم "أتـور- عـا".

"تصحـرت الأرض وهلـك الحـرث والنسـل وخطـف الخبـز مـن علـى رؤوس الخبازيـن وأكل النـاس القطـط والـكلاب.. بـل أن النـاس أكلـت الميتـة وأخـذوا في أكل الأحيـاء وصنعـت الخطاطيـف والكلاليـب لاصطيـاد المـارة بالشـوارع مـن فـوق الأسـطح".. عـذرا لـم يكـن هـذا جـزء مـن حكاوي شـيخ المؤرخـين المصريـين "أحمـد بـن علـي المقريـزي" والـذي عُـرف باسـم "تقـي الديـن المقريـزي، في رائعتـه "اتعـاظ الحنفـا بأخبـار الأئمـة الفاطميـين الخلفـا"، ولكنـه واقـع ستعيشـه مصـر إذا مـا بخـل علينـا رب الميـاه الأبديـة "نـون" ورفـض يومـاً أن يمنـح "أتـور- عـا" النهـر العظيـم، "حابـي" روح الفيضـان الجالبـة للسـعادة، سـتتحول "تـي مـن هـور" إلـي تلـك القريـة المهجـورة.

"النيـل نجاشـي.. حليـوه أسـمر.. عجـب للونـه دهـب ومرمـر.. أرغولـه في ايـده.. يسـبح لسـيده.. حيـاة بلدنـا.. يـا رب ديمُـه.. قالـت غرامـي في فلوكـة.. وسـاعة نزهـة ع الميـه.. لمحـت ع البعـد حمامـة.. رايحـة علـى الميـه وجايـه.. ووقفـت أنـادى الفلايكـى.. تعالـى مـن فضلـك خدنـا.. رد الفلايكـى بصـوت ملايكـى.. قـال مرحبـا بكـم

مرحبتين".. هل تذكرون تلك الأغنية التراثية، كتب كلماتها أمير الشعراء أحمد بك شوقي منذ أكثر من ٨٥ عام مضت، وقام بتلحينها وغنائها موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب، حينما كان للفن معني ورسالة تُكتب من خلاله تاريخ أمة، اليوم، ونحن نعيش مرحلة فن المهرجانات، كيف يمكن كتابة تلك القصيدة، وبالشكل الذي يلائم المرحلة، النيل مجاشي.. والأرض العطاشى.. تشتاق لمجئ حابي.. النيل مجاشي.

●●●

ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم